

التشبيه التمثيلي وسماته البلاغية

Rational Simile (Tāmselī) and its Rhetorical features
(Applied theoretical study)

* د. محمد سليم هويد

** د. حبيب الله خان

Abstract

The article discusses the definition of Rational Simile both as grammatical and rhetorical terminology. The researcher has tried to point out, within the idiomatic definition, the differences of opinions and interpretations among the grammatical and rhetorical scholars in the idiomatic definition of Rational Simile. The ancient rhetoric's have cared a lot in their researches and works and have dealt with it in separate chapters and books.

Imam Abd al-Qaher al-Jurjāni, was the first scholar how differentiate between Simile and Rational Simile in his book *The Asrar ul Balāghā*, then the rhetoric's differed in its definition, the researcher mentioned the opinion of Imam Abd al-Qaher al-Jurjāni and the scholar Al-Sakaki, and al-Qazwinī, then he balanced among these definitions, and mentioned a comprehensive definition of Rational Simile which include all its kinds.

Keywords: Simile, Rational, rhetoric, similarity.

نبه كثير من أهل العلم إلى شيوع التشبيه في بيان العرب، حتى ذكر المراد أن "التشبيه جارٍ كثيراً في كلام العرب، حتى لو قال قائل: "هو أكثر كلامهم لم يبعد" (1) لذا لم يكن غريباً منه ظهور أثر هذه العناية في كتابه "الكامل" حيث كتب أوفى ما دونه أهل ذلك العصر عن التشبيه، فكتب ستاً وسبعين صفحة، عني فيها بالتقييم والتحليل. بل قد عدّ بعض المتقدمين التشبيه غرضاً مما قصدته العرب في أشعارها، ويشهد لرأيه وجود قصائد مبنية على التشبيه عند امرئ القيس، وليبيد، وابن المعتز، سواء أكان من المتعدد المتلاحق على المشبه به، أم كان من المتعدد المركب من صور جزئية تضامت وامترجت حتى تكونت منها صورته الكلية، ربما قاربت العشرين بيتاً أو تجاوزتها، ولعل هذا يوضح سر اهتمام فقهاء الشعر والعارفين بنقد التشبيه منذ عصور العرب الأولى، فكانت تشبيهات امرئ القيس، وزهير بن أبي سلمى، والنابغة الذبياني، وعترة بن شداد، وليبيد بن ربيعة، وطرفة بن العبد، وذو الرمة، وابن المعتز محل عناية الرواة والعلماء. وفي ضوء هذا نفهم اعتبار عبد الملك بن مروان التشبيه وسيلة لكشف صادق الشعر من مفتعلة كما ورد في قصته مع عبد الله بن قيس الرقيات، حين دخل عليه بقصيدته "البائية" فلما انتهى إلى قوله:

"يَأْتَلِقُ النَّاجُ فَوْقَ مِفْرَقِهِ
عَلَى جَبِينِ كَأَنَّهُ الذَّهَبُ" (2)

غضب عبد الملك، وقال: قد قلت في مصعب بن الزبير:

"إِنَّمَا مُصَعَّبٌ شَهَابٌ مِّنَ اللَّهِ
بَجَلْتُ عَنْ وَجْهِهِ الظُّلْمَاءُ" (3)

فأعطيته المدح بكشف الغم وجلاء الظلم، وأعطيتني من المدح ما لا فخر فيه، وهو اعتدال التاج فوق جبيني الذي هو كالذهب في النضارة (4)، وفي رواية كأني من ملوك العجم.

* رئيس قسم الدراسات الإسلامية، جامعة بشاور باكستان.

** أستاذ مساعد، بكلية اللغة العربية، ومنسق مركز اللغة العربية لغير الناطقين بها بالجامعة الإسلامية العالمية، إسلام آباد - باكستان.

كما كان التشبيه محكاً لتميز الإبداع من التقليد في قصته مع الأخطل، حين دخل عليه، فقال له: قد امتدحتك، فقال عبد الملك: إن كنت تشبهي بالحية والأسد فلا حاجة لي بشعرك، وإن كنت قد قلت في مثلما قالت أخت بني الشريد - الخنساء - لأخيها صخر فهات.

فقال الأخطل: وما قالت يا أمير المؤمنين؟ قال: هي التي تقول:

"فَمَا بَلَّغَتْ كَفُّ إِمْرِي مُتَنَاوِلٌ
وَلَا بَلَّغَ الْمَهْدُونَ فِي الْقَوْلِ مِدْحَةً
مِنَ الْمَجْدِ إِلَّا حَيْثُ مَا نَلَتْ أَطْوَلُ
وَلَا صَدَقُوا إِلَّا الَّذِي فِيكَ أَفْضَلُ" (5)

وفي كتب الشعر وروايته ونقده كثير يؤازر هذا ويكشف عظيم مكانة التشبيه عند عرب هذه العصور. هذا وقد جاء التشبيه في القرآن الكريم ضمن نظمه المعجز، حيث اقتصرت من الدقائق واللطائف، والإيحاءات ما شغل به العلماء من لدن أبي عبيدة، والجاحظ، والرماني، والعلامة الزمخشري، وأبي السعود، والطبي، وابن عاشور، وأبي موسى. كما شغل غيرهم بتشبيهات العرب في أشعارها: جمعاً، وتأملًا، واستنباطًا، كما دونه المبرد، وابن المعتز، وابن طباطبا، والإمام عبد القاهر الجرجاني، وابن أبي عون.

وقد اجتهد الأستاذ علي الجندي - رحمه الله - في جمع ما يتعلق بفن التشبيه في مؤلف من أربعة أجزاء، يعد موسوعة في بابه، وإن كان بحاجة إلى تميم وتحقيق في بعض جوانبه.

على أن جمهرة الدارسين المحدثين قد نظروا إلى التشبيه بعيداً عن قيمته في تراث العرب، بل في ضوء مقاييس النقد الغربي، فغمطوه، وأنزلوه عن مكانته، وقضوا فيه بأحكام جائرة.

على أنه يحسن هنا التصدير ببعض التشبيهات، التي يجب تمثلها قبل عرض التشبيه التمثيلي واختلاف البلاغيين فيه. إن التعرف على أسرار التشبيه وخصائص إبانته إنما يتجلى بقدر العناية بالمشبه به، إذ هو العنصر الذي يفيض على الصورة بأطيافها، وإيحاءاتها، وقد قرن به المشبه ليكتسب منه بقدر ما تفيض به موهبة المبين، وتودعه ملكته من أسرار البيان في صورة حية، محكمة قد امتزجت عناصرها، وتفاعلت، وتشاربت.

وفي هذا ما يوضح سر مجيء المشبه مفرداً والمبشبه به مركباً في جمهرة التشبيهات في بلاغة العرب؛ لأن المشبه به يورد تفاصيل وأحوالاً في المشبه يصير بها مركباً، ونادراً ما يأتي على عكس هذا. كما في قول أبي تمام:

"يا صاحبي تَقْصِيًا نَظْرِيكُمَا تريا وجوه الأرض كيف تُصَوِّرُ

تريا نهاراً مشمساً قد شابه زهر الربا فكأنما هو مقمَرُ

دنيا معاشٍ للورى حتى إذا جلي الربيعُ فإنما هي منظرُ

أضحى تصوغ بطونها لظهورها نورا تكاد له القلوب تُنَوِّرُ" (6)

حيث تمثل المشبه به المفرد في لفظه "مقمَر" وقد طوت وراءها هذا المشهد اللليل، لأن ما سبقها من ذكر النهار المشمس، وزهر الربا، وأنه شابه - أي خالطه - لم يبلغ بالمشهد مبلغ النماذج الذي ذابت فيه هذه العناصر - النهار المشمس، وزهر الربا - وتلاشت أصولها، وصارت إلى شيء آخر تصفه كلمة "مقمَر"، هذه الكلمة التي كأنها نافذة دقيقة أطلت منها العين على هذا المشهد الجديد (7).

إن تحليل صور التشبيه كثيراً ما يبيّن على تجلية بلاغة المفردات والأساليب المكونة لتركيب التشبيه، ويتجلى هذا بوضوح عند الإمام عبد القاهر الجرجاني في تحليل ما أورده من نماذج تمثلت فيها أسرار البلاغة، وأدقها ما فصله في دلالة كلمة "تھاوی"،

واعتماد رواية نصب "وأسيافنا" ورفض رواية الرفع، وغير هذا من جزئيات التركيب في بيت بشار:

"كَأَنَّ مَنَارَ النَّعْمِ فَوْقَ رُؤُوسِنَا وَأَسْيَافَنَا لَيْلٌ تَهَاوَى كَوَاكِبَهُ" (8)

"حيث نظم هذه الدقائق كلها في نفسه، ثم أحضرك صورها بلفظة واحدة، ونبه عليها بأحسن تنبيهه وأكمله بكلمة وهي قوله "تھاوی"؛ لأن الكواكب إذا تهاوت واختلفت جهات حركاتها، وكان لها في تهاويها تدافع وتداخل، ثم إنھا بالتھاوي تستطيل أشكالها" (9).

وهذا تحليل دقيق لصورة المشبه به في بيت بشار، وبيان لسر تفوقه، وكأن الإمام عبد القاهر الجرجاني في هذا ومثله يلهمنا المنهج الصحيح في دراسة التشبيه، وأنه التفسير وتحليل الشاهد، والتعرف على الكلمة الغنية والوقوف عندها، لأنه تطوي وراءها هذه الصورة الحافلة.

وقد تابعه في هذا المنهج العلامة الزمخشري فيما شاع وانتشر في تفسيره الكشاف بأجزائه الأربعة.

ولعل حديثه في تحليل أول تشبيه قرآني يمثل النموذج الأوفى لهذا المنهج، عنى العلامة الزمخشري بتحليل مفردات تركيب التشبيه، وبيان قيمتها في إثراء صورة التمثيل، وهذا في مفردات:

"استوقد" من وقود النار بمعنى شفعوها وارتفاع لهيها.

وإثارة لفظ "بنورهم" على نظيره "بضوئهم" لكون الذهاب بالنور أبلغ، إذ الضوء فيه دلالة على فرط النور والزيادة فيه، فلو قيل: ذهب الله بضوئهم لأوهم الذهاب بالزيادة، وبقاء ما يسمى نوراً، والغرض: إزالة النور عنهم رأساً، وطمسه أصلاً، بمناسبة ما ذكر بعده "وَتَرَكْتُهُمْ فِي ظَلَمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ".

لفظ "ظلمات" بدلالته على عدم النور وانظماستها، وفي جمعها، وتنكيرها، وإتباعها بما يدل على أنها ظلمة مبهمة لا يتراءى فيها شيء.

كما عنى بتحليل خصائص تركيب التمثيل مما يدخل الآن تحت علم المعاني، مثل حديثه عن:

حذف جواب "لما" في قوله "فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ"، وتوجيه القول بالحذف من الناحية البلاغية بالإيجاز، مع الإعراب عن الصفة التي حصل عليها المستوقد بما هو أبلغ من اللفظ في أداء المعنى كأنه قيل: فلما أضاءت ما حوله خمدت، فبقوا خابطين في ظلام، متحرين، متحسرين على فوت الضوء، خائبين بعد الكدح في إحياء النار.

على هذا الوجه من "حذف جواب لما" يكون قوله "ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ" كلاماً مستأنفاً كأنهم لما شبهت حالهم بحال المستوقد الذي طفئت ناره اعترض سائل فقال، ما بالهم قد أشبهت حالهم حال هذا المستوقد؟ فقيل: ذهب الله بنورهم، أو يكون بدلاً من جملة التمثيل على سبيل المثال.

حديث العلامة الزمخشري عن إسناد الفعل "ذهب" إلى "الله" في قوله - سبحانه - : "ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ"؛ بأنه إذا أطفئت النار بسبب سماوي من ريح أو مطر فقد أطفأها الله - تعالى - وذهب بنور المستوقد.

التعدي واللزوم بين تعبير "ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ" وقولنا: أذهب الله نورهم، حيث أن لفظ "أذهب" بمعنى: أزاله وجعله ذاهباً، وقوله ذهب به: بمعنى استصحبه، ومضى به معه، والمعنى: أخذ الله نورهم وأمسكه، فهو أبلغ من الإذهاب.

حذف المفعول في "لا يبصرون" وأنه من قبيل المتروك المطروح الذي لا يلتفت إلى إخطاره بالبال، لا من قبيل المقدر المعنوي كأن الفعل غير متعد أصلاً. (10)

يقول الدكتور محمد أبو موسى عقب تحليل شاهد بشار السابق "يا صاحبي تقصيا نظيركما..." "ومن الخطأ أن نظن أننا نخرج بك عن الغرض حين نحدثك عن النداء في "يا"، وامتداد الصوت في "صاحبي"، والأمر في "تقصيا"؛ لأن هذا من قبيل علم المعاني، وذلك لأن دراسة سياق شاهد مهم، ولأن الترابط بين الخصائص ليوضح بعضها بعضاً مهم جداً، دراسة الصيغ ودلالات التراكيب ينبغي أن تكون مقدمة لدراسة كل صورة من صور البيان؛ لأنها هي

الخطوط التي تتكون منها هذه الصور، فقوة التشبيه وضعفه كثيراً ما يكمن وراءه شيء آخر ليس داخلًا في مباحث التشبيه الاصطلاحي" (11).

إن التصور الجامع الدقيق لما يفيد العلماء من ضوابط التشبيه لا يستغني عنه دارس راشد؛ إذ به تجلّى معالم الفن التشبيهي، وتكشف أصول إبانته، وتحدد أطره ومباحثه، وقضاياها، وتستشرف آفاقه، ويستعان على سلوك المنهج الأمثل تأصيلًا، وضبطًا وتحليلًا، وتدقيقًا، وتجديدًا.

وقد غفل أكثر المحدثين عن هذا، وأوقعهم غرورهم واضطرابهم في تنكب طرائق أهل العلم في الدرس والتحليل ففسدت كثرة من نظراتهم، وأفضياهم في هذا الباب وفي غيره.

وإذا كان هذا الصنيع العجيب قد غلب على جمهرة المحدثين فإن طائفة أخرى قد وقفت - في درس هذا الفن - عند نتاج القدماء - لا سيما المتأخرين - مكتفية بترداد مقولاتهم بعبارتها، وشواهداها، وتعليقاتها، ومناقشاتهما، دون إضافة أو تجديد، فانصرف عنهم أكثر أهل زمانهم لَمَّا لم يجدوا فيما كتبوه بيانًا حيًا يلائم بتحدد العصور والأذواق.

وقد أثارت هنا المنهج الأمثل الذي ارتضاه الراسخون من علماء الأمة في كافة عصورها، وهذا بعرض ضوابط العلم موجزة، مصفاة، بعيدة عن الإيغال في المناقشات والمحاكات التي كثرت في كتب البلاغيين المتأخرين، مع العناية المضاعفة بروح هذا العلم من تدقيق الأساليب والصور، وتلمس خصائص الإبانة في أدب ذوي الموهبة والنبوغ، ثم فتح مجالات التجديد في الدراسة والإبداع.

وسوف أبدأ بعرض التشبيه التمثيلي وآراء العلماء البلاغيين فيه مع شواهد مشفوعة بتحليل مبسط كاشف لكي يسهل تحديد قواعد الباب في ضوءها.

التمثيل أو التشبيه التمثيلي:

تناولت المذهبية التشبيه التمثيلي، واحتكت حوله الآراء، واشتجر في مفهومه الخلاف، حتى أفرزت المدارس البلاغية تعريفات شتى، لهذا الفن البياني الجميل، ابتداء من إمام البلاغة عبد القاهر الجرجاني، وانتهاء بالخطيب القزويني، ومحسن أن نعرض بإيجاز لأبرز ما تمخضت عنه قرائح أعلام البلاغة، من آراء حول مفهوم التشبيه التمثيلي.

أولاً: رأي الإمام عبد القاهر الجرجاني:

قسم الإمام التشبيه من حيث وجه الشبه إلى قسمين: أحدهما: غير تمثيلي، وثانيهما: تمثيلي؛ لأن وجه الشبه إما أن يكون حسياً وإما أن يكون عقلياً والعقلي قد يكون ظاهراً واضحاً أي عقلياً تحقيقياً، لا يحتاج إلى التأول، وقد لا يكون كذلك بل لا بد فيه من التأول، وذلك إذا كان عقلياً غير حقيقي. إذن هنالك ثلاثة أنواع لوجه الشبه، وهي:

أولاً: أن يكون وجه الشبه حسياً، يدرك بإحدى الحواس الخمس الظاهرة، فيكون من المبصرات، أو المسموعات، أو المشمومات، أو المذوقات، أو الملموسات، ولا يضير بعد ذلك أن يكون الوجه مفرداً أو مركباً. كقول الشاعر:

"فَوَجَّهَكَ كَالنَّارِ فِي ضَوْئِهَا وَقَلْبِي كَالنَّارِ فِي حَرِّهَا" (12)

وكذلك تشبيه الخد بالورد والشعر بالليل في الحمرة والسواد، فإن وجه الشبه في مثل هذه التشبيهات محسوس، بحيث نستطيع أن ندركه مباشرة دون افتقار إلى تأمل طويل ولا حاجة إلى التأول والتفكير في استخلاصه؛ لأننا نراه في المشبه به كما نراه في المشبه، فهو محقق في كل منهما.

ثانياً: أن يكون وجه الشبه غزياً طبيعياً، فإن الغرائز والطباع، وإن كانت عقلية؛ لأنها لا تدرك بالحواس، لكنها تلحق بالحسيات، لأنها حقائق متقررة ثابتة، نعلمها في المشبه به، كما نعلمها في المشبه، كالشجاعة والجنون، والكرم والبخل، والذكاء والبغاء، إلى ذلك من الكيفيات النفسية. كقول الشاعر:

"أَنْتَ كَاللَيْثِ فِي الشَّجَاعَةِ وَالْإِفْ
دَمًا وَالسَّيْفِ فِي قِرَاعِ الحُطُوبِ" (13)

وجه الشبه - الشجاعة - في هذا الشعر موجود في كلا الطرفين - المشبه والمشبه به - مع أن هذه الصفة ليست من الأشياء المحسوسة وإنما هي أمر عقلي حقيقي ثابت في المشبه كما هو في المشبه به، فهو أمر لا يحتاج إلى تأول؛ لأنها معروفة في المشبه "الممدوح" مثل وضوحها في المشبه به "الليث" إلا أنها تختلف في الدرجة.

ثالثاً: أن يكون وجه الشبه عقلياً غير حقيقي، يحتاج في تحصيله وإدراكه إلى تأول وصرف عن الظاهر؛ لأن المشبه غير مشارك للمشبه به في حقيقة وجه الشبه، وإنما في مقتضاه ولازمه، سواء كان الوجه مفرداً أو مركباً.

والمثال على ذلك قول العرب: "ألفاظه كالعسل في الحلاوة" فإن "الحلاوة" وجه شبه ظاهري فقط؛ لأن المشبه به وهو العسل يوصف بالحلاوة على سبيل الحقيقة، أما المشبه وهو الألفاظ فلا يوصف بها إلا على سبيل التأويل، وذلك بإرادة ما تستلزمه الحلاوة، من قبول النفس للشيء، وحسن وقعه فيها، وليس كذلك الحس، فالذي يشبه الخدود بالورود في الحمرة، يرى الحمرة في المشبه، كما يراها في المشبه به، دون أن يحتاج إلى تأويل.

ضابط الأمر: أن ما كان وجه الشبه فيه عقلياً غير غرزي، فهو تشبيه تمثيلي، وما عدا ذلك، فهو تشبيه غير تمثيلي، ولا يضيرنا - بعد ذلك - أن يكون الوجه مفرداً أو مركباً، ومن هنا رأى الإمام عبد القاهر الجرجاني: أن التشبيه عام، والتمثيل أخص منه، فكل تمثيل تشبيه، وليس كل تشبيه تمثيلاً.

ثانياً رأى العلامة أبو يعقوب السكاكي:

التشبيه عنده يتفرع إلى قسمين: تشبيه تمثيلي، وغير تمثيلي.

فالتشبيه التمثيلي عنده ما كان وجه الشبه فيه مركباً عقلياً غير غرزي، أي لا يتعلق بالغرائر والطباع، والكيفيات النفسية، ومن ثم، فإن السكاكي يتفق مع الإمام عبد القاهر الجرجاني في أن الأمور الغرزية لا يصلح واحد منها للتشبيه التمثيلي.

والتشبيه غير التمثيلي عنده ما كان وجه الشبه فيه مفرداً بنوعيه حسياً أو عقلياً، أو كان مركباً حسياً، فمثال ما كان الوجه فيه مفرداً وحسياً تشبيه الخد بالورد في الحمرة والشعر بالليل في السواد والريق بالخمير في طيب المذاق.

ومثال المفرد العقلي: تشبيه الرجل بالأسد في الشجاعة وبالبحر في الكرم، وتشبيه الحجة بالشمس في إزالة الحجاب والكلام بالعسل في ميل النفس.

ومثال المركب الحسي:

"كَأَنَّ مُنَارَ النَّعْفِ فَوْقَ رُؤُوسِنَا
وَأَسْبَافَنَا لَيْلٌ تَهَاوَى كَوَاكِبُهُ" (14)

ثالثاً: رأي الخطيب القزويني:

شهر إطلاق التشبيه التمثيلي عند البلاغيين المتأخرين على ما كان وجه الشبه فيه مركباً، سواء كان حسياً كما في قول المتنبي "كأنها في نهارها قمر أم عقلياً مثل قول البوصيري:

"وَالنَّفْسُ كَالطِّفْلِ إِنْ تُهْمَلُهُ شَبَّ عَلَى
حُبِّ الرِّضَاعِ وَإِنْ تُفْطِمُهُ يَنْفَطِمُ" (15)

ورائد هذا الاتجاه هو الخطيب القزويني، وكان تركيب وجه الشبه عنده قد أكسب التشبيه مزية فاق بها صور التشبيه المفرد، دون النظر إلى الحسية أو العقلية، وكان صوغ التشبيه ذي الوجه المركب فيه دلالة اقتدار تمكنت بما موهبة المصور من المزج بين العناصر المتعددة، بعد أن صهرتها، مكونة صورة مركبة، نالت إعجاب النقاد والبلاغيين على مر العصور.

الموازنة بين هذه الأقوال:

إن هذه الآراء مع وجاهتها ورسوخ أقدام أصحابها في البلاغة العربية فإنه قد يلاحظ فيها شيء من القصور، فالإمام عبد القاهر الجرجاني يقصر تشبيه التمثيل على ما كان الوجه فيه عقلياً غير غريزي سواء أكان مفرداً أم مركباً، وحجته في ذلك أنه يحتاج في تحصيله إلى إعمال فكر وإطاف روية، وينفى التمثيل عما كان الوجه فيه حسيماً مركباً، مع أن هذا الوجه وإن كان مدركاً بالحواس إلا أن انتزاعه من الطرفين ونظمه في هيئة مركبة، يحتاج إلى إعمال الفكر وإطاف الروية كالوجه العقلي.

والعلامة السكاكي يخص التمثيل بما كان وجه الشبه فيه مركباً عقلياً؛ لأن هذا المركب يحتاج في الوصول إليه إلى إعمال الفكر وإرهاق الحس، وقد تابع الإمام عبد القاهر الجرجاني في إهماله المركب الحسي مع أنه مشارك للمركب العقلي في احتياجه إلى بذل الجهد والمشقة حتى يمكن تحصيله والعتور عليه.

كما أهمل العلامة السكاكي المفرد العقلي شأن الخطيب القزويني بعده في تقييده التمثيل بما كان الوجه فيه مركباً سواء أكان حسيماً أم عقلياً، مع أن هذا الوجه لا يمكن تحصيله والوصول إليه إلا بعد كدِّ الذهن وإرهاق الحس؛ لأنه يستلزم صرف اللفظ عن ظاهره وإرادة مقتضاه ولازمه.

وإذا تأملنا حديث هؤلاء الفرسان عن التمثيل والتشبيه، فإننا نراهم يعتمدون في إيضاح الفرق بينهما على احتياج الوجه إلى بذل الجهد والمشقة وعدم احتياجه إلى ذلك، فإذا كان الطريق إليه سهلاً ميسوراً لوضوحه وقربه سمو التشبيه المعقود عليه "تشبيهاً غير تمثيلي"، وإذا كان الطريق إليه وعراً لدقته وبعده سمو التشبيه المعقود عليه "تشبيهاً تمثيلاً"، ولذا لزم علينا إيجاد تعريف يدور عند هذه العلة ويحوم حول حماها، بحيث لا يبقى تشبيه فيه حاجة إلى إعمال الفكر وكد الذهن إلا تناولناه في الاصطلاح.

ولذلك فإني توكلت على الله وأدليت بدلوى الضعيف في هذه المسألة مستعيناً بما انتقدح في ذهني من خلال أقوال العلماء السابقين وملاحظات الباحثين المتأخرين، فرأيت أن حدّ التشبيه التمثيلي الذي يجمع كل صورة وأشكاله هو كالاتي:

"التشبيه التمثيلي ما لا يدرك وجه الشبه فيه إلا بعد إعمال الفكر وبذل الجهد، حسيماً كان وجه الشبه أو عقلياً، مفرداً أو متعدداً بأداة".

القول بعدم التفريق:

من علماء البلاغة المتبحرين في هذا الفن الملمّين بقواعده وأحكامه من يرى أنه لا فرق بين التشبيهين، وما هما إلا وجهان لعملة واحدة، وقد بنوا قولهم هذا على أساس اتفاق المعنى اللغوي بين اللفظين في أصل الوضع، فالتشبيه لغة هو التمثيل والعكس.

وفي هذا السياق يقول الإمام ضياء الدين ابن الأثير: "وجدت علماء البيان قد فرقوا بين التشبيه والتمثيل، وجعلوا لهذا باباً مفرداً ولهذا باباً مفرداً، وهما شيء واحد لا فرق بينهما في أصل الوضع، يقال: شبهت هذا الشيء بهذا الشيء كما يقال مثلته به، وما أعلم كيف خفي ذلك على أولئك العلماء مع ظهوره ووضوحه" (16).

ونسب هذا القول أيضاً للعلامة الزمخشري، بأنه يعتبر التمثيل يرادف كلمة التشبيه في المعنى، فكل ما يصدق على كلمة "تمثيل" من معنى، يصدق على كلمة "تشبيه"، وكل ما يصدق على كلمة "تشبيه" من معنى، يصدق على كلمة "تمثيل".

والحق أني حاولت الوصول إلى هذا القول للعلامة الزمخشري غير أنني لم أعتز له على أثر، لا في تفسيره ولا في غيرها من الكتب، ثم وجدت كلاماً للدكتور محمد محمد أبو موسى يذكر فيه أنه في معرض دراسته من الإعجاز لدى العلامة

الزخشي لم يجد ما يثبت هذا الرأي عنه، إلا إطلاقه لفظ التشبيه على صور تمثيلية والعكس، وهذا ليس كاف في إثبات هذا القول لعلامة النحو والبلاغة، عليك بعبارة الدكتور أبي موسى: "ولست أعتقد أن هناك دليلاً واضحاً على صحة هذه الدعوى أعني عدم التفريق بينهما إلا كلامه في قوله - تعالى - : " **إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ**" (17)، فتشبيه الرافعين أصواتهم بالحمير، وتمثيل أصواتهم بالنهاق، ثم إخلاء الكلام من لفظ التشبيه، وإخراجه مخرج الاستعارة وإن جعلوا حميرا وصوتهم نهماقاً، مبالغة شديدة في الذم والتهجين، وإفراط في الشيط عن رفع الصوت. وتشبيه الأصوات بالنهاق تشبيه صريح، لكن العلامة الزخشي سماه تمثيلاً وذلك لأنه كما قالوا لا يفرق بينهما" (18).

والتعقيب على هذا الرأي - على حسب ما بدا لي - أنه وإن كان اللفظان لهما معنى واحداً في أصل الوضع، فإن ذلك لا يمنع أن يكون لكل واحد منهما مفهوماً خاصاً به في الاصطلاح، وهذا مشهور منثور في كتب اللغة والفقه أيضاً، فالعبرة بما اصطاح عليه أهل العلم لا بأصل اللفظ ومرجه.

جماليات التشبيه التمثيلي وسماته البلاغية:

1. إخراج ما لا تقع عليه الحاسة إلى ما تقع عليه، وذلك بأن يُلبس المعنوي ثوب الحسوس، ويحلى بأوصافه ومميزاته فيصير هذا الشيء المعنوي المعقول كأنه مشاهد محسوس يراه الناس ويبصرونه.
2. ومثال ذلك قول الله -عزوجل - : " **وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَانُ كَسِرَابٍ بِقَيْعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمَانُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَقَّاهُ حِسَابُهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ**" (19). فأخرج ما لا يحس من حال أعمال الكفار إلى ما يحس من حال السراب الذي يندثر ويزول إذا ما قصدته طالبه، والمعنى الذي يجمعهما بطلان المتوهم من شدة الحاجة وعظم الفاقة، ولو قال: يحسبه الرائي ماء لم يقع موقع قوله: الظمان، لأن الظمان أشد فاقة إليه، وأعظم حرصاً عليه.
3. إخراج ما لم تجر به العادة إلى ما جرت به العادة، ومعنى ذلك أن يمثل حال الأمر الشاذ النادر الحدوث بحال ما اعتاد الناس وقوعه وألفوه، ومن ذلك قوله -تعالى-: " **إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازْبَيَّتْ وَظُنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرًا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَبِ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ**" (20).
4. ففي هذا التشبيه تصوير لقيمة هذه الحياة وتمثيل لحقيقتها، فإن مثلها في مجتها ومسراتها وهناءها والسعادة فيها مهما تبلغ من المظهر البهي، والزينة الباهرة ليس لها بقاء، وإنما مآلها إلى الفناء، كمثل الماء ينزل من السماء فينبت النبات الذي يأكل منه الناس مستمتعين، والأنعام والدواب، وأنه إذ يبلغ أقصى زخرفه ونضرتة ومتعته، وامتلأ أهل الأرض بالغرور، وظنوا أن كل شيء في قبضة أيديهم جاءهم أمر الله، فصار النبات هشيماء، والإنسان رميماء، كأن لم يكن أحد بالأمس. فهو بيان لما جرت به العادة من حال الزينة والبهجة والاطمئنان ثم الهلاك والخراب فكذلك حال الناس وهذه الحياة الدنيا، وفيه العبرة لمن اعتبر، والموعظة لمن تذكّر.
5. إخراج ما لا قوة له في الصفة على ما له قوة فيها، كقوله -عزوجل-: " **وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ**" (21).

6. فهذا تشبيه قد أخرج ما لا قوة له في الصفة إلى ما له القوة فيها. وقد اجتمعا في العظم، إلا أن الجبال أعظم. وفي ذلك العبرة من جهة القدرة فيما سخر من الفلك الجارية مع عظمها، وما في ذلك من الانتفاع بما وقطع الأقطار البعيدة فيها "وما يلازم ذلك من تسخير الرياح للإنسان، فتضمن الكلام بناء عظيمًا من الفخر وتعداد النعم.
7. إخراج ما لا يعرف بالبدية إلى ما يعرف بما من المعقولات والمدركات: فيشبه هذا المعلوم المعقول عند الفطن النبيه والبليد السفیه بما قد لا تستوعبه عقولهم، وما يمكن إدراكه من البعض دون البعض الآخر، فمن هذا قوله - عزوجل -: " مَثَلُ الَّذِينَ خُمِلُوا تَنْوَرًا ثُمَّ لَمْ يُحْمَلُوا بِهَا كَمَثَلِ الْخِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ " (22)، فمشهد الحمار يحمل أسفاراً معلوم مفهوم لدى العام والخاص، فشبه به حال اليهود الذين يحملون التوراة، والجامع بين الأمرين الجهل بالمحمول وعدم الانتفاع بما فيه.
8. ومنه قوله -تعالى-: " فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعِجَزُوا بِخُلُقٍ خَاطِئَةٍ " (23)، والجامع بين الأمرين خلو الأجساد من الأرواح، والفائدة الحث على احتقار ما يؤول به الحال.
9. وهكذا قوله - سبحانه -: " مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ " (24)، فمن هذا الذي لا يدري ضعف بيت العنكبوت ووهنه وسخافة من يعتمد عليه، فكذلك ضعف حال من أشرك مع الله -جل وعلا- آلهة أخرى يعتمد عليهم ويحتمي بحماهم .

نتائج البحث:

من خلال هذا المقال توصلت إلى عدة نتائج، أهمها:

1. التمثيل مصطلح قديم عريق، غير أنه لم يكن ذا استعمال دقيق في صور مخصوصة، بل كان عاماً شاملاً لكثير من الألوان البيانية كالاستعارة والكناية وغيرها.
2. الإمام عبد القاهر الجرجاني أول من قام بالترقية بين التشبيه والتمثيل مؤيداً رأيه بالأدلة والحجج.
3. دائرة التمثيل عند العلامة السكاكي أضيق منه عند الخطيب القزويني؛ لأنه خص التمثيل بالمركبات العقلية غير الحقيقية، في حين جعل الخطيب التمثيل في الشبه المركب مطلقاً.
4. كان التشبيه والتمثيل شيئاً واحداً قبل عصر الإمام عبد القاهر الجرجاني.
5. قد تمخض النظر في أقوال البلاغيين وما لحقها من إثراء أو اعتراض إلى أن التشبيه التمثيلي مرتبط بالحاجة إلى إعمال الفكر وبذل الجهد وتركيب الصور في الذهن قصد استخراج وجه الشبه وإدراك العلة من التمثيل.
6. دراسة الصنيع ودلالات التراكيب ينبغي أن تكون مقدمة لدراسة كل صورة من صور البيان؛ لأنها هي الخطوط التي تتكون منها هذه الصور .
7. لقد أكثر القرآن الكريم من التمثيلات إلى أن بلغت الألف؛ لأن في التمثيل سرّاً لطيفاً وحكمة غالية، إذ به يصير الوهم مغلوباً للعقل، والخيال مجبوراً للانقياد للفكر وبه يتحول الغائب حاضراً، والمعقول محسوساً، والمعنى مجسماً، وبه يجعل المتفرق مجموعاً، والمختلط ممتزجاً، والمختلف متحداً، والمنقطع متصلاً، والأعزل مسلحاً.
8. تشبيه التمثيل أبلغ من غيره، لما في وجهه من التفصيل الذي يحتاج إلى إمعان فكر، وتدقيق نظر وهو أعظم أثراً في المعاني، يرفع قدرها، ويضاعف قواها في تحريك النفوس لها، فإن كان مدحاً كان أوقع، أو ذمماً كان أوجع، أو برهاناً كان أسطع، ومن ثم يحتاج إلى كدِّ الذهن في فهمه .

الهوامش والمصادر:

- 1 . الكامل في اللغة والأدب، أبو العباس محمد بن يزيد المبرد، تحقيق: عبد الحميد هندراوي، الطبعة الأولى، عام 1419هـ، وزارة الأوقاف السعودية، جدة - المملكة العربية السعودية، ج 3، ص 70 .
- 2 . ديوان عبد الله بن قيس الرقيات، تحقيق وشرح: د. محمد يوسف نجم، (ب.ت)، دار صادر، بيروت - لبنان، ص 98 .
- 3 . المصدر السابق، ص 97 .
- 4 . كتاب الصناعتين الكتاب والشعر، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري، تحقيق: علي محمد الجاوي، الطبعة الأولى، عام 1371هـ، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي، دمشق - سوريا، ص 98 .
- 5 . ديوان الخنساء، شرح معانيه ومفرداته: حمدو طماس، دار المعرفة، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، عام 1425هـ، ص 38 .
- 6 . شرح ديوان أبي تمام، الخطيب التبريزي، تحقيق: راجي الأسمر، الطبعة الثانية، عام 1414هـ، دار الكتاب العربي، بيروت لبنان، ج 2، ص 194 .
- 7 . التصوير البياني دراسة تحليلية لمسائل البيان، محمد محمد أبو موسى، الطبعة الأولى، عام 1993م، مكتبة وهبة، القاهرة - مصر، ص 70 .
- 8 . ديوان شعر بشار بن برد، تحقيق: السيد بدر الدين العلوي، الطبعة الأولى، (ب.ت)، دار الثقافة، بيروت - لبنان، ص 94 .
- 9 . أسرار البلاغة، عبد القاهر الجرجاني، تحقيق: محمود شاکر أبو فهر، الطبعة الأولى، عام 1991م، مكتبة الخانجي، القاهرة - مصر، ص 175 .
- 10 . الكشف عن حقائق غوامض التنزيل، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد الزمخشري، الطبعة الثالثة، عام 1407هـ، دار الكتاب العربي، بيروت - لبنان، ج 1، ص 144 .
- 11 . التصوير البياني، ص 70 .
- 12 . ديوان رشيد الدين وطواط، محمد بن محمد رشيد الدين وطواط، الطبعة الأولى، عام 1960م، كتابخانه بارانین تهران، إيران، ص 63 .
- 13 . ديوان المتنبي، أحمد بن حسين الجعفي أبو الطيب المتنبي، الطبعة الأولى، عام 1403 هـ، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت - لبنان، ج 3، ص 45 .
- 14 . ديوان شعر بشار بن برد، ص 94 .
- 15 . ديوان البوصيري، شرف الدين محمد بن سعيد بن حماد الجنوني، الطبعة الأولى، (ب.ت)، دار المعرفة، بيروت - لبنان، ص 94 .
- 16 . المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ضياء الدين ابن الأثير، تحقيق: أحمد الحوي، (ب.ت)، دار نضضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة - مصر، ج 2، ص 123 .
- 17 . سورة لقمان، الآية: 19 .
- 18 - البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري وأثرها في الدراسات البلاغية، د. محمد محمد أبو موسى، الطبعة الثانية، عام 1408هـ، مكتبة وهبة، القاهرة - مصر، ص 211 .
- 19 . سورة النور، الآية: 39 .
- 20 . سورة يونس، الآية: 24 .
- 21 . سورة الرحمن، الآية: 24 .
- 22 . سورة الجمعة، الآية: 5 .
- 23 . سورة الحاقة، الآية: 7 .
- 24 . سورة العنكبوت، الآية: 41 .